الخوف من مجاعة عامة

(١)

(ملخصة عن مقالة في مجلة القرن التاسع عشر للسر هنري ريو)

في سنة ١٧٩٨ نشر ملثوس بحثهُ المشهور بعنوان « مبدأ زيادة السكان وتأثيرهُ في اصلاح حال المجتمع في المستقبل » . وقال عند نشر هذا البحث انهُ ينشرهُ « اعتقاداً ان اهل عصرهِ واقفون على شفا زمان مفعم بالانقلابات الاساسية التي ستكون من بعض الوجوه صاحبة القول الفصل في مستقبل النوع الانساني » . وخلاصة بحثهِ ان قوة زيادة السكان اعظم بما لا يحد من قوة الارض على اخراج الطعام اللازم لهم » . وعليهِ أبان ان من اوجب المواجب وضع حدّ لزيادة السكان اذا أريد دفع مجاعة عامة

ومما قال عن انكلترا بوجه خاص انهُ لا يمضي قرن « حتى يبلغ عدد سكانها ١١٢ مليوناً في حين ان ارضها لا تخرج من الطعام الاّ ما يكفي ٣٥ مليوناً فقط فيبقى ٧٧ مليوناً (نحو الثلثين) لا طعام لهم من ارضها »

وبعد ذلك بقرن كامل اي في سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقف السر وليم كروكس رئيس المجمع البريطاني حينئذٍ يخطب فيهِ فقال « ان انكلترا وسائر الامم المتمدنة امام خطر عظيم وهو ان لا تجد من الخبز ما فيهِ كفافها »

وفي يومنا هذا كثيرون يقولون قول ملثوس وكروكس ويبشرون الناس بمجاعة قريبة ناشئة عن نفاد جميع مصادر الطعام وموارده . وتخرصاتهم هذه مفرغة في قوالب مبهمة يحاولون اظهارها بمظهر الحقائق بايراد احصاءات ناقصة يتلقفها الناس ويصدقونها ولاسيما ان الحرب تركتهم في خوف دائم من المجاعة

ولو صحّ ان قدرة الارض على اخراج الطعام بلغت حدّها الاقصى وان الناس لا ينقذهم من المجاعة ما يبذلون من جهيدهم لحق القول ان الحضارة في اشد ازماتها وان ثورة عامة طامة قريبة الوقوع . ولكن اذا اتضح لنا ان لا أساس من الصحة لمثل هذا الزعم وان مصادر الارض وموادها تكفي جميع حاجات الناس وتزيد وانهُ لا يجلب المجاعة العامة علينا غير حمقنا وجهلنا سهل حينئذٍ

ازالة العوائق والحوائل التي تحول دون عود الامور الى مجراها الطبيعي من حيث انتاج الطعام وتوزيعهُ

والذين يزعمون ان العالم على شفا المجاعة يبنون زعمهم هذا على ثلاثة فروض : الاول ان الطعام نادر ندرة عظيمة في بعض المساحات الواسعة من اوربا . والثاني ان الطعام الذي كان يرد على اسواق العالم فيما مرّ من شرق اوربا وجنوبها الشرقي انقطع على ان لا يعود . والثالث ان البلدان التي تصدر الطعام الى الخارج بلغت حدّها الاقصى من الانتاج

ومما يجب التنبيه اليهِ هنا خطة من مؤداها بناء تقدير حاجاتنا الفعلية على قواعد نظرية كما يظهر من المثل الآتي . فقد كانت المانيا قبل الحرب تستورد نحو مليوني طنّ من القمح سنويًّا . والمعروف على سبيل الترجيح لا التوكيد ان موسم القمح فيها سنة ١٩١٨ لم يزد كثيراً على نصف متوسط مواسمها العادية قبل الحرب . وعليهِ كان يجب عليها سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ ان تستورد نحو اربعة ملايين طنّ من القمح لتكفي حاجات اهلها . والواقع انها لم تستورد سوى ٤٢٧ الف طنّ من القمح و١٣٥ الف طن من الجويدار . وقد يظن انها لم تستورد اكثر من ذلك لانها لم تجد حاجتها في اسواق العالم وبعبارة اخرى لان موارد العالم نفدت . ويردّ على هذا انهُ في آخر موسم ١٩١٨ — ١٩١٩ بقي في اهراء استراليا والارجنتين خمسة ملايين طنّ حنطة على القليل من المواسم السابقة . وليس في الناس عاقل يقول ان المانيا كانت سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ تستطيع شراء جميع حاجتها من الحنطة . ومهما يكن مقدار هذه الحاجة فظاهر انها انما تشتري ما كانت تستطيع دفع ثمنهِ نقداً او وعداً . وظاهر ايضاً ان ما كانت تستهلكهُ من الحنطة قبل الحرب قليل العلاقة بحاجتها الحاضرة . فانها مضطرة الى المبالغة في الاقتصاد . ولا بدّ من مضي سنين كثيرة قبلما تتمكن من اشباع نفسها كما كانت تفعل في ايام عزها ورخائها

وقس على ذلك النفس في الفرق بين الحاجة الحاضرة وبين الطلب الفعلي . فقد تضاءلت بعد انفصال شعوبها المختلفة عنها بعد الحرب حتى نقص عدد سكانها الى ٧ ملايين منهم ٢½ في فينا عاصمتها وهم في حاجة الى واردات كثيرة من الطعام

لا يستطيعون الحصول عليها . ولم تستطع سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ ان تستورد سوى ٣٤٢ الف طن من الحنطة

وقد ساعد المرجفين على المبالغة في تقدير ما تحتاج اوربا اليهِ من الطعام جهلهم ان الفقر والفاقة يحولان دون تعادي الناس في الشراء . وزد على ذلك ان الذين حاولوا الانباء بالمستقبل جهلوا بادئ بدء ما ستأول اليهِ حال الكمبيو فيما يرجح . على اننا اذا تحفظنا لهم عذراً في هذا الباب لم نجد لهم عذراً على ما اكثروا من التشاؤم عن الاضرار التي لحقت بالاراضي الزراعية في الحرب وقولهم انها اضرار دائمة لا يمكن ازالتها وانهُ لا بدَّ من مرور زمان طويل قبلما يعود انتاج الطعام في البلدان التي طمت عليها سيول الحرب الى مجاريهِ المعتادة. وعندي كما قلت في مقالة سابقة انهُ اذا استقرت الاحوال الاجتماعية والسياسية في اوربا فان انتاج الطعام فيها يعود الى ما كان قبل الحرب بعد حصاد سنة ١٩٢١

على ان الاحوال الاجتماعية والسياسية لا تزال في كثير من بلاد اوربا بعيدة عن ان يصحَّ وصفها بالمستقرة . ولا يزال الشعور بالامن على النفس ناقصاً في حين انهُ لازم كلَّ اللزوم لحمل الفلاَّح على زيادة انتاجهِ . ونحن نجهل الاحوال الزراعية في اوربا الوسطى لقلة ما لدينا من الاحصاءات الشافية عنها ولكننا نعلم ان مساحات واسعة منها تعوزها الادوات الزراعية والاسمدة والبهائم وما اشبه ذلك ولكن هناك ما يحمل على الاعتقاد ان بلاداً كثيرة منها نشطت من عقالها وتقدمت تقدماً محسوساً في زراعتها

ولنأخذ البلجيك شاهداً على ما يمكن عملهُ من هذا القبيل فان عندنا احصاءات وافية عنها . ويؤخذ من هذه الاحصاءات ان الاراضي التي زرعت فيها حبوباً هذه السنة من قمح وجريدار واوت وشعير اقلُّ في مساحتها ٨ في المئة فقط مما كانت قبل الحرب . وجاءنا منها في اواخر السنة الماضية ان الزيادة الحديثة في انتاجها جعلتها تستغني عن كثير من الواردات الاجنبية وانهُ لا يعوزها شيءٌ من المواد الضرورية . فالسكر فيها فاض عن حاجة اهلها فاصدر هذا الفائض الى فرنسا

وليس من ينكر ان ما تخرجهُ اوربا الآن من الطعام اقلُّ مما كان قبل الحرب

ولكن لا ينكر ايضاً انها تقدمت تقدماً يذكر من هذا القبيل وان استيرادها للطعام من الخارج اقل بكثير مما تدلُّ عليهِ النظريات والاحصاءات

ومن العبث البحث فيما عسى روسيا وممالك البلقان ان تصدر من الصادرات الى خارج بلادها. فقد ثبت انهُ كان فيها منذ سنتين اهراء تفيض حنطة ولوكانت طرق التجارة مفتوحة حينئذٍ بينها وبين سائر اوربا لأغرقت الاسواق الاوربية بالحبوب . ولكننا لا نعلم هل باقٍ فيها الى الآن شيءٌ من تلك الحبوب وما هو المقدار الباقي . وكلُّ ما نعلمهُ بالتأكيد انهُ لا بدَّ ان يفيض منها كثير من الحنطة في المستقبل فيصدر من موانىء البحر الاسود وان روسيا ستستعيد يوماً مكانها الاول من اسواق الطعام في العالم

على ان انصار ملثوس وكروكس لا يبالون كثيراً بهذه الاعتبارات ويقولون لنسلّم جدلاً ان العالم يستطيع اجتياز هذه الازمة بمشقة كثيرة وان اراضي اوربا الزراعية تستعيد خصبها الاول وروسيا تعود الى امداد حبوبها كالعادة فان هذا كلهُ انما يؤجل الطامة الموعودة الى اجل قصير لان سكان الارض وخصوصاً المتمدنة يستأنفون مسيرهم الى يوم القضاء عليهم بخطى تتزايد على سلسلة هندسية . ولما كانت وسائل المعيشة قد بلغت الآن حدَّها الاقصى فان شبح المجاعة يهيمن علينا من الآن وينذرنا بنهاية كل شيء وبانقضاء كل اجل في زمن قريب

ومما تجدر الاشارة اليهِ هنا ان الحنطة والطعام ليسا لفظين مترادفين ولا هما اسمين لمسمًّى واحد ولكن الناعين بالمجاعة كالسر وليم كروكس مثلاً لا يبحثون وهم يتناولون هذه المسئلة الاَّ في الحنطة والبلاد التي تزرع الحنطة . وربما كان في ذلك بعض النفع لنا لاننا نعلم عن الحنطة ومقدار ما ينتجهُ العالم منها اكثر مما نعلم عن سائر مواد الطعام . وما دمنا نبحث في الحنطة فلنبحث قليلاً في المقدار الذي ينتجهُ العالم منها الآن فنقول

ان البلاد التي تزرع الحنطة الآن على قدر كبير هي خمسة — الولايات المتحدة الاميركية وكندا والارجنتين واستراليا والهند

(وسيأتي الكلام على كل واحدة منها في بقية هذه المقالة)